

كم نوع للجندية وجيوش المرتزقة ؟

ناقشنا فيما سبق كل ميزات الولايات التي طرحناها بدايةً... ودرسنا في بعض الحالات أسباب سعادتها أو تعاستها وأظهرنا الطرق التي سلكها الكثيرون سعياً وراء احتلالها والاحتفاظ بها.

والآن بقي لي أن أتحدث بشكل عام عن من يستطيع استخدام الإساءات والدفاعات للتوصل إلى كل واحدة من الولايات الأنفة الذكر... وعن المخاطر التي تهددها والحلول الممكنة.

لقد قلنا سابقاً... أنه من الضروري للأمير أن يمتلك أساسات متينة... وبخلاف ذلك فهو يسير إلى هلاكه لا محالة. وفي مقدمة الأساسات الرئيسية التي يجب أن تملكها كل دولة سواءً أكانت جديدة أو قديمة أو مختلطة... القوانين الجيدة والجيش الجيد، لأنه لا يمكن أن يكون للدولة قوانين جيدة حيث لا يكون لديها جيش جيد وحيث يوجد جيش جيد توجد قوانين جيدة. لذلك لن أتحدث عن القوانين وسأكتفي بالحديث عن الجيش^(١).

إما أن يكون الجيش الذي يدافع به الأمير عن دولته خاصاً أو ملحقاً أو مستأجراً أو مختلطاً. المستأجر والملحق خطيران ودون نفع... فإذا جعل أحد دولته معتمدة على الجيوش المستأجرة أي جيوش المرتزقة لن تكون هذه الدولة راسخة ولا في أمان... لأن هذه الجيوش مفككة... غير منظمة ولا مخصصة... وجريئة ووقحة بين الأصدقاء وجبانة بين الأعداء... لها مطامع خاصة ولا تخشى الله وليس لديها إيمان أو احترام لعهودها نحو الرجال. معها... يؤخر المرء الدمار بقدر ما يؤخر الهجوم... ففي وقت الحرب ينهبه الأعداء وفي وقت السلم تنهبه هذه الجيوش... فليس لديها سبب لتكون في الميدان سوى القليل من النقود التي تأخذها كأجر لها. وهذا غير كافٍ لجعل الجنود يقبلون على الموت لأجلك. إنهم يريدون أن يكونوا جنودك فعلاً طالما لا توجد حرب... لكن عندما تأتي الحرب فلما أن يفروا

(١) - "قوانين وأسلحة" هاتان الكلمتان مرتبطتان دائماً عند "ميكا فيللي". من وجهة نظره لا يمكننا التفكير بالنظام المدني والنظام العسكري بشكل مستقل كل منهما عن الآخر.

أو أن يذهبوا بعيداً عنها. ولأقنعتك أيها الأمير بهذا علي أن أقاسي بعض التعب..

إن دمار "إيطاليا" لم ينتج عن سبب آخر سوى الاعتماد كلياً على جيوش المرتزقة والتي قد أعطت البعض فيما مضى شيئاً من النجاح... وكانت تبدو ظافرة شجاعة عندما كانت تقاتل فيما بينها... لكن عندما يأتي الغريب تظهر هذه الجيوش على حقيقتها. وهذا ما أتاح لـ "شارل" ملك "فرنسا" الحصول على "إيطاليا" بكل سهولة... أما من يقول بأن أخطائنا هي من تسببت في ذلك، فإنه على حق... فقط إن كان يقصد التي شرحتها سابقاً... وبما أن الأمير هو الذي اقترف هذه الأخطاء.. فعليه هو أيضاً أن يعاني من العقوبات المترتبة عليها.

أود أن أوضح بشكل جيد شقاء هذه الجيوش.. فالقادة فيها إما أن يكونوا من الرجال الممتازين أو لا. فإذا كانوا من النوع الممتاز لا يمكنك الاعتماد عليهم... لأنهم يتطلعون دائماً لرفعتهم وعظمتهم الخاصة... فإما أن يطغون عليك أنت رب عملهم... أو أن يطغوا على الآخرين... دون أن تكون أنت تريد ذلك.

أما إذا كان القائد من النوع الآخر... أي الغير صالح فمن الطبيعي أن يدمرك... فإذا أجابني أحداً ما بأن القائد سواء أكان من النوع المستأجر أم لم يكن.. فإنه إن كان يملك الجيش والسلاح سيسير على نفس الطريق... وهنا سأجيبه أنا بدوري بأنه يجب على جيش الأمير أو الجمهورية أن يعمل للخير العام، وعلى الأمير أن يذهب شخصياً ليقوم بمهمة القائد لجيوشه... كما يجب على الجمهورية أن تبعث مواطنيها إلى القتال فإذا بدا شخصٌ منهم غير ذو قيمة وتعقل، عليها أن تستبدله... وعليها أن تحاسبه عندما تظهر هذه الصفات عليه بموجب القانون لكي لا يتجاوز حده^(١).

ومن خلال الخبرة نجد أن الجمهوريات المسلحة والأمراء هم وحدهم من يحققون النجاحات الكبيرة جداً... بينما جيوش المرتزقة هذه لا تأتي إلا بالخسائر والأضرار. إن الجمهورية المسلحة بجيوش خاصة تجد صعوبة بطاعة أحد مواطنيها أكثر مما تجده الجمهورية المسلحة بجيوش خارجية.

(١) - يكشف التعبير "يتجاوز حده" عن الضرورة الواجبة على الجمهورية بأن تضع حدوداً للطموح الشخصي للقادة.

وقد نجحت كل من "روما" و"إسبارطة" في البقاء مسلحة وحررة خلال عدّة قرون^(١) كما بقي "السويسريون" أيضاً مسلحين جداً وأحرار...

لنأخذ كمثال على جيوش المرتزقة القديمة أهل "قرطاجة" عندما أنهوا حربهم مع "الرومانيين" وكانوا على وشك الهلاك بسبب جنودهم المستأجرين أي المرتزقة... مع أن القادة كانوا آنذاك من مواطنيهم.

بعد وفاة "إبيامينونداس" جعل "التيبانيون" من "فيليب المقدوني" قائداً على جيوشهم... فقام هذا الأخير بسلبهم حريتهم بعد نصره. ثم مات الدوق "فيليب" فاستأجر أهل "ميلان" "فرانسوا سفورزا" لقتال أهل البندقية وهم الأعداء المهزومين في "كارافاج" واتفق "فرانسوا" معهم على قمع سيادة "أهل البندقية" (أرباب عمله) في "ميلان". كان والده "سفورزا"^(٢) جندياً عند الملكة "جان" في "نابولي" فتركها فجأة دون سلاح، لذلك أجبرت على الارتقاء في أحضان ملك "أراغون" لكي لا تفقد مملكتها. ومع أن "أهل البندقية" و"الفلورنسيين" قد وسّعوا سلطتهم بهذه الجيوش المستأجرة... وإن كان قوادهم قد دافعوا عنهم دون السعي إلى السلطة، فذلك كله يرجع إلى أن الحظ قد خدم "الفلورنسيين".

أمّا القادة الصالحون الذين كانوا قادرين على إرعابهم.. فقد هُزم البعض منهم... ولاقى الآخرون معارضة... ومنهم من حوّل طموحه باتجاه آخر. وكان من بين أولئك الذين لم ينتصروا "جيو فاني أوكوت"^(٣) وبما أنّه قد هُزم لم تستطع معرفة مدى نزاهته ولكن كل شخص يقول بأنه لو انتصر لاستطاع أن يكسب الفلورنسيين بفطنته.

لقد كان "سفورزا" و"براكسيو" ضد بعضهم دوماً، إلّا أنّ كل واحدٍ منهم كان يحافظ على وجود الآخر... فقد حوّل "فرانيسكو" طموحه من "لومباردي" و"براكسيو" حوّل طموحه عن الكنيسة ومملكة "نابولي".

لكن لنأتي الآن إلى أحداث جديدة... "دوبالو فيتولي" رجل حكيم جداً... كسب هيبة وسمعة عظيمة جداً بجهوده الخاصة... وجعل منه

(١) - بحسب تاريخ "ميكا فيلي" بقيت "روما" حرة خلال ٤٠٠ عام و"إسبارطة" ٨٠٠ عام.

(٢) - "موزيو أتوندولو سفورزا" (١٣٦٩ - ١٤٢٤) قائد مرتزقة إيطاليا لخدمات متعددة (ميلان - فلورنسا - الملكة (جان) التي خانها...).

(٣) - قائد مرتزقة إنكليزي في خدمة الفلورنسيين في الطور الأول من الحرب ضد "جيان

"الفلورنسيون" قائداً لهم. ولو أنه احتل "بيزا" لما عاد هناك شخص يمكنه أن ينكر أنه من الأفضل للفلورنسيين أن يبقوا معه وأن يخضعوا له... لأنه إذا أصبح في جيش أعدائهم سيجدون أنفسهم بلا حيلة ولكن إذا استمر معهم، عليهم أن يطيعوه.

إذا تأملنا انتصارات "أهل البندقية" سنرى أنهم تصرفوا بأمان واستقرار ومجد لأنهم حاربوا بأنفسهم وهذا ما حدث قبل أن يوجهوا مشروعاتهم إلى اليابسة عندما تصرفوا بفضيلة جداً مع السادة ومع عامة الشعب المسلحين... لكنهم تركوا هذه الفضيلة ما إن بدؤوا القتال على اليابسة واتجهوا نحو عادات الحروب الإيطالية^(١)، في بداية امتدادهم على اليابسة... لم يكن لديهم الكثير مما يخافون عليه من قادتهم إذا ما امتلك هؤلاء الآخرون الكثير من المقاطعات على هذه الأرض اليابسة وكانت لهم شهرة وسلطة واسعة فيها.

لكن بامتدادهم تحت قيادة "كارما غنولا" لاحظوا خطأهم هذا: ففي فترة قيادته كان بأسلاً جداً بمحاربته لدوق "ميلان"... ولكنه في مرحلة أخرى من الحرب أصبح متقاعساً جداً وفاتر الهمة. لذلك رؤوا أنهم لن يستطيعوا الانتصار معه بسبب نيته السيئة... ومع ذلك لم يكن بإمكانهم عزله لكي لا يفقدوا ما كان قد كسبه... آنذاك توصلوا إلى أنه من الأفضل قتله لكي يطمئنون من ناحيته... وجعلوا لهم قادة في أعقابهم هم "بارتولوميو دو بورغام" و"روبيرتو دو سانسو فورينو" والكونت "بيتجيانو" وأمثالهم... ومعهم أصبحوا يخشون الهزيمة.. وليس المكاسب، كما حصل فيما بعد في "فيلا"... حيث فقدوا ذات يوم ما كانوا قد سعوا لكسبه بكثير من التعب خلال ٨٠٠ عام... وذلك بسبب هذه الجيوش التي لا تُعطي إلا المكاسب البطيئة والضعيفة.. أما هزائمها فتكون فجائية وسريعة وخارقة...

إن هذه الأمثلة تجعل التفكير يتجه نحو "إيطاليا" حيث يُعتمد - منذ سنوات طويلة - على جيوش المرتزقة... وهنا أودُّ أن أسهب في الحديث عنها... وأن أفحص جوانبها المتقدمة حيث تُصبح فرص تلافيتها ممكنة أكثر بعد معرفة أصلها وتطورها... في الأزمنة الأخيرة... ما إن بدأ الاحتلال بالانسحاب من "إيطاليا" حتى اكتسب البابا فيها سلطة وهيبة واسعتان في السلطة الزمنية... وانقسمت "إيطاليا" إلى دول متعددة وأشهرت العديد من

(١) - هنا "ميكافيلي" يلمح للحروب بين المرتزقة حيث سيفضح الطرق في نهاية هذا الفصل.

المدن الضخمة فيها السلاح في وجه نبلائها الذين سيطروا وقمعوا هذه المدن باختيار وتسهيل الإمبراطور... بينما كان هؤلاء النبلاء مفضلين لدى الكنيسة فمن خلالهم ستكتسب هيبتها في السلطة الزمنية وخرج مواطنون في العديد من المدن الأخرى ليصبحوا أمراء وهكذا كانت "إيطاليا" خاضعة للكنيسة وبعض الجمهوريات^(١). فكان مَنْ تحت رحمة الكنيسة أساقفة والآخرون مواطنون معتادون على عدم معرفة السلاح... لذلك بدأت "إيطاليا" باستئجار الغرباء. وأول من منح شهرة في هذه الجندية هو "البيريكودي كونيو" من "رومانيا"، ثم جاء من مدرسته "باراكسيو" و"سفورزا" اللذان كانا سادة مطلقين في "إيطاليا"، بعد ذلك جاء كل الآخرين الذين حكموا هذه الجيوش حتى هذا الوقت.. وكانت آخر فضائلهم أن جعلوا "إيطاليا" مرغوبة من "شارل" منهوبة من "لويس" مضطهدة من "فيرديناند" ومسلوبة من "السويسريني". لقد ساهم التنظيم الذي اتبعوه في بادئ الأمر بمنهم أنفسهم الشهرة في نزع سلطتهم عن المشاة... لقد قاموا بذلك لأنهم كانوا بلا دولة.. وليس لديهم مصدر رزق غير مهنتهم الوحيدة... إضافة إلى أن عدد قليل من المشاة لن يمنحهم الهيبة والشهرة التي يريدونها ولن يستطيعوا أن يطعموهم ويؤمنوا حاجاتهم (أي للمشاة) بشكل كافٍ. لذلك اقتصروا على عدد مقبول من الفرسان بحيث يمكنهم إعالتهم... وهكذا استطاعوا إطعامهم وتكريمهم... وتطوّرت الأمور في هذا المجال إلى حد أننا لم نجد في جيش مؤلف من ٢٠ ألف جندي... ألفا جندي مشاة.

بالإضافة إلى ذلك فقد كانوا يستخدمون كل حيلهم ليقبلوا من الخوف والتعب لديهم ولدى جنودهم... فلم يقتل بعضهم بعضاً في الشجارات التي كانت تحدث، بل كانوا يأخذون أسرى من بعضهم دون فدية... ولم يدخلوا المدن في الليل كما لم يتّجه أولئك الذين في المدينة نحو الخيام... ولم يكونوا يقيمون الأسياج من خوازيق وخنادق حول المعسكر... ولم يحاصروا إحدى المدن في الشتاء... مع أن كل هذه الأشياء كانت مسموحة في تنظيماتهم العسكرية وموجودة من قبلهم... ولكن لكي يتجنبوا الجهد والمخاطر ابتعدوا عنها، كما قلنا، وظلّوا على ذلك حتى قادوا "إيطاليا" إلى العار والعبودية.

(١) - يجب أن تفهم كلمة الجمهورية هنا كاسم معطى لكل مدينة مرووسة بحاكم سواء أكانت إمارة أم جمهوريّة بالمعنى الحرفي للكلمة. ٧٨